أُسس الحوار الإسلاميّ المسيحيّ
قراءة نظريّة وتاريخيّة

الأب صلاح أبو جوده اليسوعيّ*

مقدّمة

إنّ الكلام في أُسس الحوار الإسلاميّ المسيحيّ يفترض علينا أن نبحث عن الدوافع التي تجعلنا نقوم بهذا العمل، أي «لماذا نحاور؟». ويشير الكاردينال آرينزه، رئيس المجلس البابويّ للحوار بين الأديان[1]، إلى أنّ التحاور واجب على كلّ مسيحيّ، فهو ليس اختياريًّا، ولا ينحصر في نخبة من الأكاديميّين. أمّا دوافعه، فهي، بالدرجة الأولى، لاهوتيّة.

١. أُسس الحوار اللّاهوتيّة

١. ١. شدّد آباء المجمع الڤاتيكانيّ الثاني على أنّ هنالك إنسانيّة واحدة، أو عائلة بشريّة واحدة، أصلها الله؛ ودور الكنيسة الكاثوليكيّة أن

(*) باحث في معهد الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة (جامعة القدّيس يوسف، بيروت). ونصّه المنشور هنا هو أصلًا محاضرة أُلقيت في أثناء «الفُورُوم الوطنيّ الرابع للشباب»، في ١٨ آب ٢٠٠١، دار سيّدة الجبل - نقا (لبنان).

(١) Cardinal Francis Arinze, *Church in Dialogue, Walking with Other Believers*, Ignatius Press, San Francisco, 1990, p. 160-183.

تسعى لكي تجمع أبناء الله المشتّتين في وحدة حقيقيّة[٢]. وفي الواقع، نشأت الكنيسة وهي تجاهد لكي تهدم جدران العداوة بين اليهود والأمم، وتجعل منهم شعبًا واحدًا رأسه المسيح، وبذلك تتابع العمل الذي بدأه المسيح نفسه. يقول القدّيس بولس: «فقد جعل (أي المسيح) من الجماعتين جماعة واحدة وهدم في جسده الحاجز الذي يفصل بينهما، أي العداوة» (أف ٢/ ١٤). ووصف القدّيس رسالة المسيحيّين بأنّهم «في خدمة المصالحة»[٣].

غير أنّه لا يمكننا أن نقوم بهذه الرسالة إلّا عن طريق حوار حقيقيّ مع المؤمنين من الديانات الأخرى؛ حوار مبنيّ على مبادئ الاحترام المتبادل والتقدير وكرامة الشخص البشريّ، وعلى الحرّيّة التي هي شرط أساسيّ لكلّ حوار متوازن، يهدف إلى تحقيق الوحدة عن طريق البحث عن الحقيقة. لذا، فلا بدّ من الحرّيّة الدينيّة.

١. ٢. يصرّح آباء المجمع الفاتيكانيّ الثاني في هذا الصدد بأنّه يترتّب على الناس أن يبحثوا عن الحقيقة وأن يعتنقوها إذا وجدوها. ولكن لكي يستطيعوا أن يقوموا بذلك، لا بدّ لهم من الحرّيّة النفسيّة من دون أيّ ضغط خارجيّ[٤]. في مقابل الأسس اللّاهوتيّة، إذًا، يشدّد المجمع على

---

(٢) «إنّ جميع الناس مدعوّون لأنْ يكونوا من شعب الله الجديد. لذلك يجب أن يمتدّ هذا الشعب، مع بقائه واحدًا وحيدًا، على العالم بأسره، وعلى جميع الأزمان، لكي تتمّ مقاصد إرادة الله الذي خلق في البدء الطبيعة البشريّة واحدةً، ويريد أن يجمع أخيرًا في الوحدة أبناءه المتفرّقين... تسعى الكنيسة الكاثوليكيّة سعيًا فعّالًا مستمرًّا إلى جمع البشريّة بأسرها، مع كلّ ما تنطوي عليه من خير، تحت رأسها الذي هو المسيح في وحدة الروح القدس»، «دستور عقائديّ في الكنيسة، ١٣»، المجمع الفاتيكانيّ الثاني، دساتير - قرارات - بيانات، منشورات المكتبة البوليّة، جونيه، ١٩٩٢.

(٣) «قد زالت الأشياء القديمة وها قد جاءت أشياء جديدة. وهذا كلّه من الله الذي صالحنا بالمسيح وأعطانا خدمة المصالحة» (٢ قور ٥/ ١٧ب-١٨).

(٤) «إذ كان جميع الناس أشخاصًا، أي ذوي عقلٍ وإرادةٍ حرّة، ومن ثمّ ذوي مسؤوليّة شخصيّة، فبداعي كرامتهم وبدافعٍ من طبيعتهم نفسها ومن الإلزاميّة الأدبيّة يجب=

«الحرّيّة الدينيّة»، التي من دونها لا يمكن أن يقوم حوار سليم.

١ . ٣. وفي الواقع، تأتي ثوابت المجمع في زمن تتطوّر فيه وسائل الاتّصال بين الشعوب على نحو مذهل، وأصبح تعدّد الديانات فيه حقيقة تفرض نفسها[٥]. لقد بات الانغلاق على الذات أو الاكتفاء الذاتيّ شبه مستحيل. كما وأنّ ثمّة شعورًا يتنامى عند الشعوب بحاجة بعضها إلى بعض، مع التركيز على العناصر الإيجابيّة في الثقافات والديانات أكثر من التركيز على العناصر التي تفرّق في ما بينها. ولا شكّ أنّ حالة «التعدّديّة» الراهنة لا تكتفي «بالتسامح»، فهذا كان في زمن كانت فيه الديانات والثقافات مكتفية ذاتيًّا، في حين أنّ هنالك كنوزًا وزّعها الله على جميع الأمم[٦]. وكذلك، ما عاد «التعايش» كافيًا، بل لا بدّ من التفاعل والعمل المشترك في سبيل الخير العامّ، ولا سيّما السلام والعدالة. يتّضح، بالتالي، أنّ هدف الحوار الحقيقيّ هو أن يحول دون استقرار كلّ طرف في عالمه، بل أن يطوّر التعاون بين الجميع.

لا شكّ في أنّ هذه الأسس تبقى عامّة ونظريّة إلى حدّ بعيد. لذا، لا

=عليهم أن يطلبوا الحقيقة، ولا سيّما تلك التي تتعلّق بالدين. وهم ملزمون، إذا وجدوا الحقيقة أن يعتنقوها، وأن يُطبّقوا حياتهم على مقتضياتها. ولكي يتمكّن الناس من القيام بهذا الواجب بطريقة تتّفق وطبيعتهم الخاصّة، لا بدّ لهم من الحرّيّة النفسيّة مقرونةً بالعصمة عن الضغط الخارجيّ»، «بيان في الحرّيّة الدينيّة، ٢».

(٥) نجد التركيز على أهمّيّة الحوار مع الديانات الأخرى في أكثر من وثيقة من وثائق المجمع الفاتيكانيّ الثاني، فبالإضافة إلى «بيان في علاقات الكنيسة بالأديان غير المسيحيّة»، هنالك: «قرار في نشاط الكنيسة الإرساليّ، ١١ و١٢ و١٦ و٣٤ و٤١»، و«دستور عقائديّ في الكنيسة في عالم اليوم، ٩٢»، و«قرار في التنشئة الكهنوتيّة، ١٦ و١٩»، و«قرار في رسالة العلمانيّين، ٢٩ و٣١»، و«قرار في مهمّة الأساقفة الرعويّة، ١٣»، و«بيان في التربية المسيحيّة، ١١».

(٦) هنالك كنوز وزّعها الله على جميع الأمم تدعونا الكنيسة إلى التعرّف إليها وإنارتها بنور الإنجيل، فهي بمثابة عناصر تُعدّ للإنجيل في الحضارات، أنظر: «دستور عقائديّ في الكنيسة، ١٦ و١٧»، و«قرار في نشاط الكنيسة الإرساليّ، ٩ و١١»، و«دستور عقائديّ في الكنيسة في عالم اليوم، ٩٢».

بدّ من إلقاء نظرة تاريخيّة على تطوّر الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، فنرى معناها عمليًّا. ولكن قبل ذلك، سنعالج باختصار أمرين ضروريّين: المواقف المطلوبة من المسيحيّ في الحوار، وأشكال الحوار.

٢. المواقف المطلوبة من المسيحيّ في الحوار

ثمّة وثيقة صدرت عام ١٩٦٩، عن «أمانة سرّ الفاتيكان للعلاقات بغير المسيحيّين»، بعنوان «توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيّين والمسلمين»[٧]، تتضمّن وصفًا للمواقف المطلوبة من المسيحيّين. نلاحظ في الوثيقة تشديدًا على أنّه في الوقت الذي يجب على المسيحيّين فيه أن يخطوا الخطوة الأولى في اتّجاه الحوار، ناظرين إلى المستقبل بثقة ورجاء، عليهم ألّا يقنعوا المسلمين في دخول حوار معهم، لأنّ الحوار مثل الصداقة، لا يولد بالضغط وبالتهديد. بل من واجبهم، أوّلًا، أن يغيّروا ذهنيّتهم. لماذا هذا التغيير؟

٢. ١. يفترض الحوار حضورًا كاملًا للطرف الآخر، أي أن يكون المسيحيّون معه، أن يكونوا نفسيًّا من عالمه، شاعرين بهمومه على أنواعها، ومتضامنين مع مطالبه المحقّة.

٢. ٢. من واجب المسيحيّين أن ينظروا إلى المؤمنين الآخرين من الديانات الأخرى نظرة جديدة، فلا يعتبرونهم أعداء، ولا تلاميذ يجب أن يعلّموهم، ولا طرائد يجب اصطيادها، بل إخوة لهم في الإنسانيّة. يشاركونهم في حياتهم ويتعاونون معهم من أجل الخير العامّ. ومن واجبهم أن يقبلوهم، لا كما هم فقط، بل كما يريدون أن يكونوا.

---

(٧) أعاد الأب موريس بورمانس النظر في تلك التوجيهات التي نُقلت إلى العربيّة: أمانة السرّ للعلاقات بغير المسيحيّين، توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيّين والمسلمين، نقله إلى العربيّة المطران يوحنّا منصور، المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٨٦. من ناحية أخرى، إنّ أمانة السرّ هذه، التي أنشأها البابا بولس السادس عام ١٩٦٤، أصبحت عام ١٩٨٩ «المجلس البابويّ للحوار بين الأديان».

٢ . ٣ . يُطلب من المسيحيّين أن يتحرّروا من الأحكام السابقة، ومن ضغط الرأي الشعبيّ المتوارث، الذي يُسلّم تلك الأحكام من جيل إلى جيل، وأن يسعوا لأن يفهموا أنفسهم والآخرين أشخاصًا لهم خبراتهم الشخصيّة، ولهم قدراتهم ليتّخذوا مواقفهم النابعة من تناعاتهم، لا من تأثير «الموقف العامّ»[٨].

٢ . ٤ . ثمّ هنالك القبول بأن يتعلّموا من الآخر. لا شكّ أنّ معرفة الإسلام والحضارة العربيّة ضروريّتان في الحوار، ولكنّهما غير كافيتين. فعندما نلتقي إنسانًا آخر، علينا أن نعتبر أنّه يملك شيئًا يعلّمنا إيّاه ويغني خبراتنا الشخصيّة. ولا بدّ من التركيز هنا على أنّ الحوار لا يعني أن يعرض كلّ طرف على الطرف الآخر عقائده الدينيّة. ففي مثل هذه الحالة يكون الحوار مقارنة أفكار، لا مشاركة بين أشخاص أحياء يعيشون علاقاتهم الشخصيّة مع الله والعالم.

٢ . ٥ . لقد أصبح من الواضح أنّ هدف الحوار ليس أن يجعل المسيحيّون المسلمين يعتنقون إيمانهم، ولا أن يشكّكوهم في ما يؤمنون به، بل أن ينمّوا لقاءً روحيًّا عميقًا يحثّ كلّ طرف على أن يتقدّم في فهم إيمانه وفي ترجمته في حياته اليوميّة. بالطبع، لا يُلغي هذا الموقف أمنيّة كلّ مسيحيّ ملتزم أن يؤمن محاورُه بالمسيح، فهذا أثمن ما يرغب فيه.

---

(٨) «إنّ ارتباط الشخص «بالعامّة» هو من أشدّ العوامل التي تمنعه من الانتباه إلى الآخر، وتمنعه من لقاء حقيقيّ به. ولهذا الارتباط وجوه عديدة، أشدّها وطأة: ذاك الرباط المستمرّ وغير الشعوريّ الذي يقيّد الإنسان بالرأي العامّ وبالموقف العامّ على نحوٍ يعتاد عليه، حتّى إنّه يصبح في لاوعيه. ولا شكّ أنّ الجمهور يضغط على الشخص بواسطة ذلك «الرأي العامّ». إلّا أنّه جمهور خفيّ ومستتر، ولكنّه مسيطر، لأنّه يسود الحكم والقرار، ويفرض رأيه قطعيًّا. فيتسلّل إلى وجدان الشخص ويثبت له إنّه غير قادر أبدًا على أن يكوّن من تلقاء نفسه أيّ حكم أو قرار، فيوفّر له ما يحتاج إليه من أحكام ومواقف تفرض نفسها بقوّة من دون أن تفسح في المجال لأيّ نقاش»، ترجمة بتصرّف عن كتاب:

Martin Buber, *La vie en dialogue*, Aubier, Paris, 1959.

ولكنّ هذه الرغبة لا يُعبّر عنها بنوايا خفيّة ولا تحرّك روح الحوار الذي يتطلّب الشفافيّة.

٢. ٦. بناء على ما تقدّم، ينفي الحوار كلّ توفيقيّة (خلق عقيدة هي مزيج من عقائد الديانتين)، وكلّ نسبيّة (المساومة على بعض الحقائق الإيمانيّة)، بل يفترض إبراز حقائق إيمان المتحاورين على المستوى المعاش أكثر منه على المستوى النظريّ. لذا، يبقى واجب إعلان المسيح بالقول والعمل في صميم الحوار. وبالتالي، فإنّ المسيحيّين مدعوّون إلى أن يسعوا باستمرار لتكون حياتهم مطابقة لتعاليم الإنجيل[٩].

٣. أشكال الحوار

يمكن أن ندرج أشكال الحوار تحت أربعة عناوين:

٣. ١. حوار الحياة، وهو شكل يصحّ في المجتمعات ذات الديانات المتعدّدة مثل لبنان. قد يعني هذا الحوار، في أوضاع نزاع وتوتّر، الإبقاء على خطوط الاتّصال مفتوحة بين الأطراف، والسعي

(٩) «يظنّ بعضهم أنّ زمن إعلان المسيح عن طريق تبشير الآخرين ودعوتهم إلى التوبة والإيمان قد انقضى، وجاء زمن الحوار والتعايش الأخويّ لجميع المؤمنين من مختلف الديانات. غير أنّ هذا الموقف ينطوي على خطأ لاهوتيّ ورعويّ جسيم. ذلك بأنّه يترتّب على رسل المسيح أن يتبعوا وصيّته: «فاذهبوا إذن وعلّموا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، ولقّنوهم أن يحفظوا كلّ ما أوصيتكم به، وهاءنذا معكم كلّ الأيّام حتّى منتهى الدهر» (متّى ٢٨/١٩-٢٠)»، توجيهات في سبيل الحوار...
إضافة إلى ذلك، إنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني، عندما يُعلن أنّ أتباع الديانات الأخرى هم من ضمن قصد الله الخلاصيّ، يعلن أيضًا ما يميّز الكنيسة: «يعلن المجمع المقدّس أوّلًا أنّ الله نفسه بيّن للجنس البشريّ الطريق التي، إذا سلكها الناس في خدمته تعالى، يتمكّنون من الخلاص والسعادة في المسيح يسوع. ونحن نؤمن أنّ الديانة الحقيقيّة الوحيدة قائمة في الكنيسة الكاثوليكيّة والرسوليّة التي وكّلَ إليها السيّد المسيح أمر نشرها بين جميع الناس... فعلى جميع الناس إذن أن يطلبوا الحقيقة ولا سيّما في ما يتعلّق بالله وكنيسته، حتّى إذا عرفوها اعتنقوها وكانوا عليها محافظين»، «بيان في الحرّيّة الدينيّة»، ١.

لمناقشة الاختلافات بعقلانية وموضوعية، والعمل لتوطيد السلم الأهليّ. أمّا في أوقات السلام، فهو يفيد تعايش الناس وعملهم المشترك في حقول السياسة والاقتصاد والثقافة وغير ذلك، من دون أن يدخلوا بالضرورة في نقاش رسميّ حول معتقداتهم.

٣. ٢. حوار الالتزام الاجتماعيّ، والمقصود به تعاون المؤمنين من مختلف الديانات لكي يطوّروا مشاريع أو يخدموا مؤسّسات تهدف إلى خدمة المجتمع خدمة متجرّدة، ويسعوا لحماية البيئة والأخلاق وحقوق العمّال[١٠].

٣. ٣. المشاركة في الخبرات الروحيّة. يمكن بعض المجموعات والأشخاص، من مسلمين ومسيحيّين، الذين يعيشون حياة روحيّة جدّيّة، أن يتشاركوا حول دور الصلاة في حياتهم، وطرق جمعهم بين الصلاة والعمل، وطرق الصلاة نفسها[١١].

٣. ٤. الحوار اللّاهوتيّ، وهو يتمّ بين أصحاب اختصاص. يقول سيادة المطران بسترس في هذا الإطار: «الهدف من الحوار العقائديّ هو إزالة الالتباسات والأفكار الخاطئة لدى كلٍّ من الطرفين حول عقائد الطرف الآخر، وذلك بغية التوصّل إلى تعايش أخويّ واحترام متبادل... الحوار العقائديّ بين المسيحيّة والإسلام، إن تمّ، لا يهدف إلى الوصول في نهايته إلى الاتّفاق على الدين الصحيح»[١٢]، بل إلى قبول التعدّديّة والتعاون الأخويّ.

---

(١٠) لا شكّ في أنّ إعلان المسيح في شكل الحوار هذا لا يكون على نحو مباشر، بل غير مباشر. إلّا أنّ تحرير الإنسان وخدمة العدالة هما من صلب رسالة المسيح، ولا شكّ أيضًا أنّ مَن يرى الخراف الحقيقيّة، فيرى، في نهاية الأمر «راعيها».

(١١) يمكن أن ندرج هنا أيضًا «الاجتماع من أجل الصلاة»، كما حصل في أسّيزيّ في ٢٧ تشرين الأوّل ١٩٨٦، حيث أقيم اليوم العالميّ للصلاة من أجل السلام. لم يكن المجتمعون يصلّون معًا، لأنّ الصلاة تقوم على الإيمان، وهم يختلفون بعضهم عن بعض في هذا المضمار. ولكنّهم صلّوا على النيّة نفسها، فكلّ عائلة دينيّة رفعت صلاتها إلى الله على طريقتها بحضور العائلات الدينيّة الأخرى.

(١٢) المطران كيرلّس سليم بسترس، «العلاقات المسيحيّة - الإسلاميّة، تاريخًا وحاضرًا»

٤ . التطوّر التاريخيّ

نصل الآن إلى تقديم عرض تاريخيّ مختصر لتطوّر الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، وذلك لسببين: أوّلًا، حتّى تكتمل الصورة على قدر الإمكان، فنحاول أن نعتبر الأسس والمبادئ، وهي دومًا مثاليّة، في ضوء الواقع. وثانيًا، لكي يكون لنا الإيمان والرجاء الوطيد أنّ الله هو مَن يقود التاريخ البشريّ في تعثّراته.

٤ . ١ . يبدو الحوار الإسلاميّ المسيحيّ متأثّرًا، على مرّ العصور، بنظرة المسلمين إلى الإسلام بصفته الدين الكامل الوحيد، على نحو يولّد موقف اكتفاء ذاتيّ جذريّ، وبمأساة اللقاء التاريخيّ بين محمّد والمسيحيّة[١٣]. في شأن الأمر الأوّل، تبلورت منذ نشأة الإسلام النقاط التالية: أوّلًا، ثمّة اكتفاء ذاتيّ يغلب على الفكر الدينيّ الإسلاميّ، أي إنّ الشعور الغالب عند المسلمين هو عدم حاجتهم إلى أن يتعلّموا من الآخرين أيّ شيء يتّصل بموضوعات إيمانيّة. وثانيًا، هنالك فكرة سائدة

=ورؤية مستقبليّة»، في: المسرّة ٨٠٢ (١٩٩٣)، ص ٣٣٧-٣٥٣. «والملاقات المسيحيّة الإسلاميّة يجب أن تنطلق من واقع اختلاف دينيّ لا يسعنا أن نبدّل فيه شيئًا، ولكنّنا ننظر إليه نظرة جديدة. فبدلًا من أن يقول كلّ منّا إنّ دينه هو وحده الدين الصحيح والآخر على ضلال مبين، نقول إنّ المسيحيّة والإسلام طريقان متوازيان يقودان كلاهما إلى الله الواحد» (المرجع نفسه، ص ٢٤٢).

لا شكّ في أنّ الاختلافات العقائديّة بين الإسلام والمسيحيّة كبيرة وتتّصل بأمور جوهريّة. على سبيل المثال، إنّ مسيرة الخلاص، أي تدخّل الله الشخصيّ في تاريخ البشر ليخلّصنا، غريبة عن الإسلام. وبالنسبة إلى الإسلام أيضًا، إنّ يسوع نبيّ وليس إلهًا، كما أنّه لم يُصلب. إضافة إلى ذلك، ثمّة ألفاظ مشتركة بين الديانتين، مثل: الله والوحي والأنبياء، ولكنّ مضمونها ليس مماثلًا.

(١٣) إنّ صيغ الحوار الأولى هذه، التي تُعدّ صالحة لكلّ مكان وزمان، يعتبرها الكثير من المسلمين أنّها تنطوي على رسالة أوحاها الله من شأنها أن تضيء الكائنات والأشياء السرّيّة. ونتيجة ذلك، يبدو القرآن حقيقة أبديّة يكشف للإنسان حقيقة نفسه وللمسيحيّين حقيقة أنفسهم أكثر ممّا هم يعرفون أنفسهم.

Cf. J.M. Gaudel, *Disputes? Ou rencontres? L'Islam et le christianisme au fil des siècles*, vol. I, survol historique, PISAI, Rome, 1998, p. 3-15.

أيضًا تفيد أنّ الإسلام يعرف المسيحيّين أفضل ممّا يعرف المسيحيّون أنفسهم. وثالثًا، نلاحظ نزعة في الإسلام إلى التمييز بين يسوع التاريخيّ، عيسى بن مريم، الذي هو نبيّ مثل سائر الأنبياء، ويسوع المسيح الذي يؤمن به المسيحيّون. ورابعًا، أنّ دور المسيحيّ الحقيقيّ هو أن يثبت صحّة الإسلام(١٤).

أمّا في ما يختصّ باللقاء التاريخيّ بين محمّد والمسيحيّة، فالدراسات المعاصرة تتكلّم على لقاء «مبتور». فبالرغم من أنّ القرآن يشيد في بعض آياته بتواضع بعض المسيحيّين(١٥)، يبدو أنّ محمّدًا قد التقى مسيحيّة قليلة الشفافيّة، أعطته انطباعًا أنّها خانت يسوع وحرّفت الأسفار(١٦)، وعبدت ثلاثة آلهة، وتضمّنت رجال دين مهيمنين وبخلاء،

(١٤) ثمّة مراجع قرآنيّة تقدّم القرآن نفسه على أنّه تثبيت لما سبق أن أُوحي به (٢/ ٤١ و٩١ و٩٧، و٣/ ٣ و٤/ ٤٧ و٥/ ٤٦-٤٨، و٦/ ٦١، إلخ). وفي البداية، يتلقّى محمّد نصيحة اللجوء إلى الذين تسلّموا الكتب قبله لكي يحصل منهم على التثبيت والتشجيع (١٠/ ٩٤). إلّا أنّ هذا الموقف ضعف بقدر ما فهم محمّد نفسه بتزايد كخاتم الأنبياء (٣٣/ ٤٠)، ومَن يجب عليه أن يدعو أهل الكتاب إلى الاهتداء. وبالتالي، أصبحت رسالة الديانات الأخرى مجرّد صدى لحقائق الإسلام. فلا فضل للمسيحيّة أو لغيرها بشيء على الإسلام، لأنّ الوحي مصدره الله وحده.

(١٥) ﴿ولتجدنّ أقربهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهبانًا وأنّهم لا يستكبرون﴾ (٥/ ٨٢). إلّا أنّ هذه الآية، التي تُتلى غالبًا في اللقاءات الإسلاميّة المسيحيّة، لا تخلو من الالتباس، لأنّ باقي النصّ يُظهر أنّ الأمر يتّصل بمسيحيّين مستعدّين لقبول الإسلام. وفي الواقع، ثمّة التباس في النصوص القرآنيّة التي تتكلّم على العلاقات مع مؤمني الديانات الأخرى. ففي حين يدعوا بعضها إلى الانفتاح، يدعوا بعضها الآخر إلى عدم مصادقتهم (٥/ ٥١). ولكي يفسّر اللاهوتيّون المسلمون هذا الالتباس، لجأوا إلى نظريّة الناسخ والمنسوخ، فاعتبروا أنّ النصوص الأحدث تُبطل ما قبلها. ولكن، في الوقت نفسه، تبقى النصوص جميعًا كلمات الله الموحاة وتفترض قبولًا وتفكيرًا.

(١٦) في نظر غالبيّة الكتّاب المسلمين، حرّف المسيحيّون، كما اليهود، النصوص نفسها وحرّفوا معناها. وفي نظر بعضهم الآخر طال التحريف المعنى فقط، أي تمّ تفسير الكتاب المقدّس تفسيرًا خاطئًا.

وأنّ المسيحيّين منقسمون على نحو لا يمكن علاجه أبدًا[١٧]. ولا شكّ في أنّه بسبب هذا اللقاء «المبتور»، بقيت العلاقة ملبّدة بالالتباس.

٤ . ٢ . أمّا في الجانب المسيحيّ، فقد عاشت الجماعات المسيحيّة التي شملتها الفتوحات الإسلاميّة، وضعًا سلميًّا على وجه العموم، ولكن تمّ التصرّف معها بحسب أحكام «أهل الذمّة»، وهذا يعني الخضوع لسلطة الإسلام ودفع الجزية[١٨]. إضافة إلى ذلك، اتّخذت الكتابات المسيحيّة الموجّهة إلى المسلمين، وكتابات المسلمين الموجّهة إلى المسيحيّين، طابعًا جدليًّا اتّصف أحيانًا بالعنف. ففي حين كرّر الكتّاب المسلمون مواقفهم التقليديّة، اعتبر بعض المسيحيّين، أمثال القدّيس يوحنّا الدمشقيّ، أنّ الإسلام بدعة. أمّا خارج حدود الفتح الإسلاميّ، فالكتابات التي دُوّنت باليونانيّة، في إطار الإمبراطوريّة البيزنطيّة، تضمّنت تهجّمات على الإسلام ومحمّد والمسلمين. ولم يكن موقف الغرب المسيحيّ أفضل حالًا، ولا سيّما مع بداية الحملات الصليبيّة وحتّى أواخر القرون الوسطى. فمُرض الإسلام، عمومًا، أنّه دين الضلال والعنف والأنانيّة، وأنّه من عمل الشيطان، وأنّ محمّدًا هو المسيح الدجّال. أمّا الجامع المشترك بين هذه المواقف، فكان عدم معرفة كلّ طرف الطرف الآخر معرفة كافية وموضوعيّة.

---

(١٧) في شأن انقسام المسيحيّين، نقرأ في القرآن (٥/ ١٤): ﴿ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظًّا ممّا ذكّروا فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبّئهم الله بما كانوا يصنعون﴾. في شأن موقف القرآن من الأحبار والرهبان، أنظر: قرآن ٩/ ٣٤ ﴿إنّ كثيرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله﴾.

Cf. Christian Van Nispen Tot Sevenaer, s.j., «Chrétien et musulmans, de la confrontation à la rencontre», in: *Christus* 150 (1991), p. 181-192.

(١٨) ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتّى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾ (قرآن ٩/ ٢). وفي الواقع، قدّم المسلمون، في البداية، لخصومهم، ثلاثة عروض: ١. اعتناق الإسلام، و٢. الخضوع ودفع الجزية، و٣. القتال.

وفي حين أنّ الأعمال الأدبيّة في الكنائس الشرقيّة عرفت انحطاطًا كبيرًا ابتداءً من القرن الثاني عشر، واشتدّت على المسيحيّين سياساتُ التضييق كردّة فعل على الحملات الصليبيّة، ظهرت بوادر تغيير في الغرب. فكتب البابا ألكسندر الثالث رسائل إلى زعماء مسلمين، محاولًا أن يرتقي بلقاء الإسلام من المواجهة إلى المستوى الروحيّ. وتبعه في السياسة عينها المرسلون الدومينيكان والفرنسيسكان. فالقدّيس توما الأكوينيّ، على الرغم من اعتباره الإسلام ديانة خاطئة، شدّد على ضرورة السعي لإيجاد نقاط مشتركة بين المسيحيّين والمسلمين، ولغةً مشتركة، والتفكير في الخبرات التي يتّفق في شأنها الجميع، وهي أنّهم جميعًا خلائق وبشر. أمّا القدّيس فرنسيس، فقد اقترح نمطَين من حضور المرسلين بين المسلمين بغية تبشيرهم: شهادة حياتيّة من خلال الأمور المعتادة، والتبشير علانيّة، وهذا ما يحتاج إلى تميز روحيّ. ويمكن القول بأنّ هذه الأنماط سادت الحضور الإرساليّ الكاثوليكيّ في بلاد الإسلام إبّان العصر الحديث.

٤ . ٣. تبعًا للأب كريستيان ترول[١٩]، حصلت تغيرات أساسيّة في الموقف الكاثوليكيّ من الإسلام، في السنوات العِشر التي سبقت المجمع الفاتيكانيّ الثاني. فبعضهم مَن اعتبر أنّ واجب جميع المسيحيّين أن يبثّوا المُثُل المسيحيّة في المجتمع الإسلاميّ، فيرقّوه تدريجيًّا نحو الديمقراطيّة، وهذا يتطلّب منهم معرفة لذهنيّة المسلمين الذين يجمعون بين الدين والسياسة. وبعضهم مَن رفض أن يرى في جميع العقائد والتقاليد والقوانين والعبادة الإسلاميّة أمورًا ضالّة وشرّيرة، وألحّ على روح الاحترام

(١٩) Christian Troll, s.j., «Changing Catholic Views of Islam», in: *Islam and Christianity, Mutual Perceptions Since the Mid-20th Century*, ed. by Jacques Waardenburg, Peeters, Leuven, 1998, p. 20-23 (Par la suite: Troll, *Changing Catholic Views*).

والصداقة والأخوّة والتفهّم في العلاقات بالمسلمين[٢٠].

وبعضهم الآخر مَن رأى في الإسلام ديانة «طبيعيّة»، أي نتيجة جيد الإنسان الذي يبحث عن الله بصدق، وركّز على دور المسيحيّين في الشهادة لله المحبّة بين المسلمين وخدمتهم، على مثال شارل دي فوكو، والتعاون معهم من أجل تعزيز العدالة الاجتماعيّة[٢١]. ولا بدّ، أخيرًا، من أن نذكر جهود المستشرق الفرنسيّ لويس ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢) الآيلة إلى تغيير نظرة الكاثوليك إلى الإسلام. فعلّم أنّ الإسلام واليهوديّة والمسيحيّة ترتقي إلى إبراهيم، وأنّه على المسيحيّين أن يتّخذوا على أنفسهم الخطيئة وحدود عقائد الإسلام وعدم كفاية شرائعه[٢٢].

٤ . ٤. إنّ مجمل هذه التطوّرات ساهمت، بشكل من الأشكال، في إطلاق خطوة المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، الذي اتّخذ موقفًا في شأن

---

(٢٠) مثّل هذا التيّار الفكريّ الأب Houben اليسوعيّ، الذي رأى أنّ الإسلام يحتاج إلى تعديل عقيدته اللاهوتيّة لكي يصبح قابلًا للديموقراطيّة بمفهومها الغربيّ.
J.J. Houben, s.j., «The Need for Islamic Studies», in: *Scientia Missionum Ancilla*, Dekker & van den Vegt, 1953; cf. Troll, *Changing Catholic Views*, p. 19.

(٢١) مثّل هذا التيّار الأب Ohm الدومنيكانيّ، الذي شدّد، في الوقت نفسه، على أنّ الطريق إلى الله هو يسوع المسيح، وأنّ مسؤوليّة المسيحيّين هي أن يعلنوا الإنجيل إلى المسلمين، لا أن يجرّدوا الحملات الصليبيّة.
Thomas Ohm, *Mohammedaner und Katholiken* Kösel, München, 1961; cf. Troll, *Changing Catholic Views*, p. 21.

(٢٢) مثّل هذا التيّار الأب دالفرني اليسوعيّ، الذي نفى عن الإسلام طابعه الإلهيّ، ورأى فيه مجهودًا بشريًّا يهدف إلى الوحدانيّة، وهذا أمر يدعو إلى الإعجاب. واعتبر أنّ رفض الإسلام للتجسّد والفداء والثالوث يمثّل حدودًا يفرضها العقل البشريّ إزاء سرّ الله.
André d'Alverny, s.j., «Chrétiens en face de l'Islam», in: *Etudes* (1956), p. 161-175; cf. Troll, *Changing Catholic Views*, p. 22-23.
وقد عُرف هذا التعليم بـ«البدليّة» substitution:
Cf. Troll, *Changing Catholic Views*, p. 27-28.

الأديان غير المسيحيّة، ولا سيّما الإسلام، كان لبطاركة الشرق الكاثوليك دور حاسم فيه[٢٣]. لقد غيّرت نظرة المجمع العلاقات على نحو جذريّ، فبدل أن يكون المسيحيّون والمسلمون فريقَين متواجهَين، فهما، قبل كلّ شيء، حاضران معًا أمام الله، خاضعان لسيادته، ومدينان لرحمته. لذا، فيو الله نفسه مَن يدخل الجميع في علاقة متبادلة.

تبعت المجمع مبادرات كثيرة لا مجال هنا إلى تعدادها. ولكن نشير إلى أنّ بطاركة الشرق الكاثوليك، في الرسائل العامّة التي وجّهوها إلى المؤمنين، اتّخذوا مواقف واضحة من العلاقات المسيحيّة الإسلاميّة تندرج في خطّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني، والمواقف التي سبق أن استعرضناها في البداية. كما كان لمجلس الكنائس العالميّ مبادرات لإطلاق الحوار. إلّا أنّ السؤال الذي يُطرح هو حول مدى تجاوب شركائنا المسلمين مع هذا الانفتاح المسيحيّ.

٤. ٥. يجب علينا أن نتحاشى الوقوع في أحد فخّين: التشاؤم،

---

(٢٣) يتكلّم المجمع على الإسلام في موضعين: أوّلًا، في نصّ صغير في «دستور عقائديّ في الكنيسة»، حيث نقرأ: «بيد أنّ تدبير الخلاص يشمل أيضًا أولئك الذين يؤمنون بالخالق، وأوّلهم المسلمون الذين يعلنون أنّهم على إيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد، الرحمانَ الرحيم، الذي يدين الناس في اليوم الآخر» (رقم ١٦). وثانيًا، في «بيان في علاقات الكنيسة بالأديان غير المسيحيّة»:

«وتنظر الكنيسة أيضًا بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحيّ القيّوم، الرحمن القدير الذي خلق السماء والأرض، وكلّم الناس. إنّهم يسعون بكلّ نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله وإن خفيت مقاصده، كما سلّم الله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلاميّ بالانتساب إليه. وإنّهم، على كونهم لا يعترفون بيسوع إلهًا، يُكرمونه نبيًّا، ويكرمون أمّه العذراء مريم، مُبتهلين إليها أحيانًا بإيمان. ثمّ إنّهم ينتظرون يوم الدين الذي يُجازي الله فيه جميع الناس بعد ما يُبعثون أحياء. من أجل هذا يقدّرون الحياة الأدبيّة، ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم، خصوصًا. ولئن كان قد وقع، في غضون الزمن، كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيّين والمسلمين، فإنّ المجمع يحرّضهم جميعًا على نسيان الماضي، والعمل باجتهادٍ صادقٍ في سبيل التفاهم في ما بينهم، وأن يحموا ويعزّزوا كلّهم معًا، من أجل جميع الناس، العدالةَ الاجتماعيّة، والقِيَم الروحيّة، والسلام والحرّيّة» (رقم ٣).

الذي يتعاوض ورجاءنا المسيحيّ، والتفاؤل الساذج. وفي المقابل، علينا أن ننمّي فينا قناعة جوهريّة، وهي أنّ الحوار في صميم رسالتنا المسيحيّة، وهو الله نفسه مَن يقوده، ولكن من خلالنا نحن. يمكن الآن أن نرسم لوحة سريعة عن المواقف الإسلاميّة من الحوار.

إنّ لقاءات الحوار التي تمّت بين ممثّلين عن الفاتيكان وبعض المؤسّسات الدينيّة الحكوميّة والأكاديميّة الإسلاميّة العربيّة، أظهرت جميعها، على وجه التقريب، تمسّك المسلمين بربط الموضوعات الدينيّة والسياسيّة. ونلاحظ الأمر عينه على مستوى اللقاءات التي تتمّ بين أكاديميّين أو رجال دين على الصعيد المحلّيّ.

فلا تغيب عن المناقشات، على سبيل المثال، مسائل محاولة الغرب الهيمنة على البلدان الإسلاميّة وإضعاف أسسها الأخلاقيّة والدينيّة، وموضوع القدس وإسرائيل والصهيونيّة، إضافة إلى انتقادات وُجّهت إلى نشاطات المرسلين المسيحيّين الساعين إلى «تنصير» المسلمين، وإلى المواقف المسيحيّة الرافضة للاعتراف بنبوّة محمّد. ولا نزال نلاحظ تكرار هذه العناوين في الخطب السياسيّة الإسلاميّة وفي ندوات الحوار[٢٤]. ومنهم مَن يرى في مبادرة الحوار نفسها طريقة مسيحيّة للتبشير بعد أن انقضى زمن الاستعمار، الذي وفّر حرّيّة عمل كبيرة للمرسلين. غير أنّ ثمّة إرادة ترسّخ بتزايد عند الكثير من المسلمين للانفتاح على المسيحيّين

(٢٤) على سبيل المثال، عبّر شيخ أزهر مصر عام ١٩٧٨، وكان حينذاك عبد الحليم محمود، عن احترامه للحوار الإسلاميّ المسيحيّ، ولكنّه سجّل أسفه الشديد لأنّ المسيحيّة لم تكفّ عن نشاطاتها الإرساليّة، ولا سيّما في بلدان ذات أقلّيّة إسلاميّة مثل الفلبّين. وشدّد على أنّ الحوار بين الإسلام والمسيحيّة لا يمكن أن يقوم ما دامت التأثيرات السياسيّة والدينيّة الغربيّة باقية على العالم الإسلاميّ. وفي الواقع، لم تتغيّر مواقف شيوخ الأزهر اللاحقين كثيرًا.

Cf. Ekkehard Rudolph, «The Debate on Muslim-Christian Dialogue as Reflected in Muslim Periodicals in Arabic (1970-1991)», in: *Muslim Perceptions of Other Religion, A Historical Survey*, ed. By Jacques Waardenburg, Oxford, 1999, p. 297-304.

والحوار معهم[٢٥].

من جهة أخرى، ثمّة صعوبات يعانيها الإسلام داخليًا، وفي طليعتها ما يُسمّى بـ«الصحوة الإسلاميّة»، أو صعود الحركات الأصوليّة، التي تهدّد أنظمة الحكم الإسلاميّة نفسها. ولكن في ما يختصّ بالحوار، فيجب التمييز بين تلك الحركات، فمنها مَن يرفض الحوار، ومنها مَن يظهر مرونة واضحة لتقبّله[٢٦]. وأخيرًا، يفتقر الحوار في الشرق، كما تطالب به الكنيسة الكاثوليكيّة، إلى أحد شروطه الأساسيّة وهو «الحرّيّة الدينيّة»، فهي غير متوفّرة في ظلّ الأنظمة العربيّة التي تحرص على إضفاء الطابع الإسلاميّ عليها، ولا في النظام الطائفيّ اللبنانيّ، الذي يضع حدودًا قاسية على حرّيّة الإنسان.

---

(٢٥) «لم تكن كلمة حوار مقبولةً دومًا كما هي مقبولة في أيّامنا. فعندما أسّست جامعةُ القدّيس يوسف معهدًا للدراسات الإسلاميّة المسيحيّة، استبعدت كلمة «حوار»، لأنّ المشاركين المسلمين وجدوا أنّها كلمة «ملغومة»، من شأنها أن تسبّب سوء فهم. وفي ١٩٧١، طبع الأب يواكيم مبارك: المسلمون: تشاور إسلاميّ مسيحيّ، وفيه يجيبُ سبعة مفكّرين مسلمين من أفريقيا الجنوبيّة ومصر وإيران والهند، عن أسئلة في شأن العلاقات بالمسيحيّين. فاعتبر أحد المجيبين أنّ الحوار يمثّل للضمير المسيحيّ ما مثّله «التعاون» coopération للدول الاستعماريّة سابقًا: إنّها لغة جديدة اعتُمدت لوضع ما بعد الاستعمار. أمّا الآن، فالحوار مطروح كضرورة...»، الأب جون دنوهيو اليسوعيّ، «الحوار الإسلاميّ المسيحيّ في لبنان: مواقف وآراء»، في: المشرق ١ (كانون الثاني - حزيران ١٩٩٥)، ص ١٢٣-١٢٤.

(٢٦) يميّز الاختصاصيّون بين التيّارات الأصوليّة التي تستعدّ تعاليمها من سيّد قطب وتمتاز بالتطرّف الكامل، والتيّارات الأصوليّة المعتدلة، التي يمثّل حسن البنّا أحد رموزها، وهي تظهر استعدادًا للتسامح والتعدّديّة إلى حدّ معيّن.

Cf. Ahmad S. Moussalli, «Islamic Fundamentalist Perceptions of Other Monotheistic Religions», in: *Islam and Christianity, Mutual Perceptions Since the Mid-20th Century*, ed. By Jacques Waardenburg, Peeters, Leuven, 1998, p. 122-157.

خاتمة

في ضوء ما ورد أعلاه، إنّ ما يترتّب علينا الآن كمسيحيّين شرقيّين، بالدرجة الأولى، هو أن نعمل على تغيير ذهنيّتنا من عدّة نواحي: أوّلًا، أن نعتبر أنفسنا من هذا العالم العربيّ، وأنّ مستقبلنا فيه، وأنّ مصيرًا واحدًا يجمعنا مع شركائنا المسلمين. وهذا، في الواقع، ما نستشفّه من رسائل بطاركة الشرق الكاثوليك العامّة، وما شدّد عليه صراحة الإرشاد الرسوليّ: رجاء جديد للبنان. ففي سياق مخاطبة مسيحيّي لبنان الكاثوليك، يقول البابا يوحنّا بولس الثاني «إنّ الكنيسة الكاثوليكيّة منفتحة على الحوار والتعاون مع المسلمين في لبنان. وتريد أن تكون منفتحة على الحوار والتعاون مع مسلمي سائر البلدان العربيّة، ولبنان جزء لا يتجزّأ منها. وفي الواقع إنّ مصيرًا واحدًا يربط المسيحيّين والمسلمين في لبنان وسائر بلدان المنطقة» (رقم ٩٣)[٢٧].

وفي السياق عينه، يترتّب على المسيحيّين الشرقيّين أن ينقّوا نظرتهم إلى العالم الغربيّ الذي له صفة مسيحيّة ويوضّحوا علاقتهم به. جاء في رسالة البطاركة «معًا أمام الله»: «وفي مجال التلاقي الإسلاميّ المسيحيّ على الصعيد العالميّ، يحدّد المسيحيّون موقفهم بكلّ وضوح. فهم مع العرب المسلمين أبناء أوفياء لأوطانهم وأبناء حضارة عربيّة واحدة بجميع مقوّماتها فيما يحقّق خير الإنسانيّة جمعاء. وهم في الوقت نفسه مسيحيّون، ومع جميع المسيحيّين في العالم، مؤمنون بالسيّد المسيح، كلمة الله الأزليّ. ومن هذا المنطلق، يَرون أنّ لهم دورًا في تقريب المواقف بين العالم المسيحيّ والعالم الإسلاميّ، وفي تحويل الصراع إلى تعاون إيجابيّ مبنيّ على الاحترام المتبادل» (رقم ٤٠)[٢٨].

---

(٢٧) يوحنّا بولس الثاني، الإرشاد الرسوليّ: رجاء جديد للبنان، منشورات اللجنة الأسقفيّة لوسائل الإعلام، جل الديب، لبنان، ١٩٩٧.

(٢٨) مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك، الرسالة الراعويّة الثالثة، معًا أمام الله في سبيل الإنسان والمجتمع، «العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيّين في العالم العربيّ»، منشورات الأمانة العامّة، بكركي، لبنان، ١٩٩٤.

من جهة أخرى، من الواضح أنّ شكلَي الحوار الحياتيّ والالتزام الاجتماعيّ هما الأكثر ملاءمة وفعّاليّة في إطارنا الشرقيّ. ولكن لكي يكون التزامنا بهما جدّيًا، من واجبنا أن نتحرّر من الأحكام السابقة التي توارثها على نحو غير واعٍ، وننظر إلى الآخرين بصفتهم أشخاصًا لهم كرامتهم الشخصيّة بصرف النظر عن انتمائهم الدينيّ. وفي الإطار عينه، دورنا أن نجيد لنميّز بين الأمور السياسيّة والإنسانيّة والاجتماعيّة، فنستطيع أن نرى في الآخر أخًا لنا في الإنسانيّة، ونخدمه خدمة متجرّدة.

وخير ما نختم به كلامنا بعض توجيهات وردت في رسالة بطاركة الشرق الكاثوليك الواردة أعلاه: «كونوا في قلب المجتمع ملتزمين بكلّ خدمة تستطيعون أن تقوموا بها. ولا تحسبوا أنّكم لا تستطيعون الجمع بين إيمانكم المسيحيّ وخدمة مجتمع تنعشه حضارة عربيّة إسلاميّة. إنّ إيمانكم المسيحيّ هو في هذا المجتمع عامل فعّال لخدمته، ومن ثمّ لا يجوز أن تغذّوا في أنفسكم عقليّة الخوف أو العزلة أو الاغتراب القوميّ. بل كونوا منفتحين على سعة الوطن العربيّ الذي أنتم جزء منه، وإخوة لكلّ أخ به، مشاركين في بنائه بعطاء وبذل، ولا سيّما في هذه الفترة التي ترتسم فيها معالم المستقبل. ولهذا، فعلى المسيحيّين أن يُعدّوا أنفسهم للقيام بخدمة الوطن على أفضل وجه.

إنّ إيماننا بالسيّد المسيح وبتعاليمه لا يمكنها إطلاقًا أن يشكّل حاجزًا بيننا وبين مجتمعنا. بل إنّ المسيح هو طريقنا إلى هذا المجتمع الذي نذهب للقائه وخدمته بالروح التي أوصانا بها هو نفسه في الإنجيل المقدّس حيث قال: «أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح فأيّ شيء يملّحه؟... وأنتم نور العالم... فليُضئ نوركم للناس ليروا أعمالكم الصالحة فيمجّدوا أباكم الذي في السموات» (متّى ٥/١٣-١٦)» (رقم ٤٣).

من منشورات دار المشرق